أبطال الإسلام

الظاهر بيبرس
(فاتح عكا)



المجد

تأليف: د/ على راشد

رسوم: ماهر عبد القادر

برقم إيداع 2013/7080

المجد للنشر والتوزيع 0106372799

هُوَ "رُكْنُ الدِّين بيبَرْسُ الْبَنْدقْدَارِىُّ"، الَّذِى لُقِّبَ بِـ "سُلْطَانِ مِصْرَ وَالشَّامِ"، وَرَابِعُ سَلاطِينِ الدَّوْلَةِ الْمَمْلُوكيَّة وَمُؤَسِّسُهَا الْحَقِيقِىُّ، بَدَأَ مَمْلُوكًا يُبَاعُ فِى أَسْوَاقِ بَغْدَادَ وَالشَّام، وَانْتَهَى بِهِ الْأَمْرُ كَأَحَدِ أَعْظَم السَّلاطِينِ فِى الْعَصْرِ الإِسْلامِىِّ الْوَسِيط، لَقَّبَهُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ أَيُّوبُ فِى دِمَشْقَ بِـ "رُكْنِ الدِّينِ"، وَبَعْدَ وُصُوله للْحُكْم لَقَّبَ نَفْسَهُ بِـ "الْمَلِكِ الظَّاهِرِ".



وُلدَ بيبَرْسُ عَامَ ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م منْ أَصْلٍ تُرْكىٍّ منْ بلَاد "الْقَبْجَاق" (كَازَاخسْتَانَ حَاليًا) وَقَعَ فى أَسْرِ الْمَغُول وَهُوَ فى الرَّابعَة عَشْرَةَ منْ عُمْره، وَتَمَّ بَيْعُهُ فى أَسْوَاق الرَّقيق بدمَشْقَ فَاشْتَرَاهُ الْأَميرُ "عَلَاءُ الدِّينِ الْبِنْدقْدَارِىُّ"، وَلذَا سُمِّىَ بِيبَرْسُ بِـ "الْبِنْدقْدَارِىِّ".



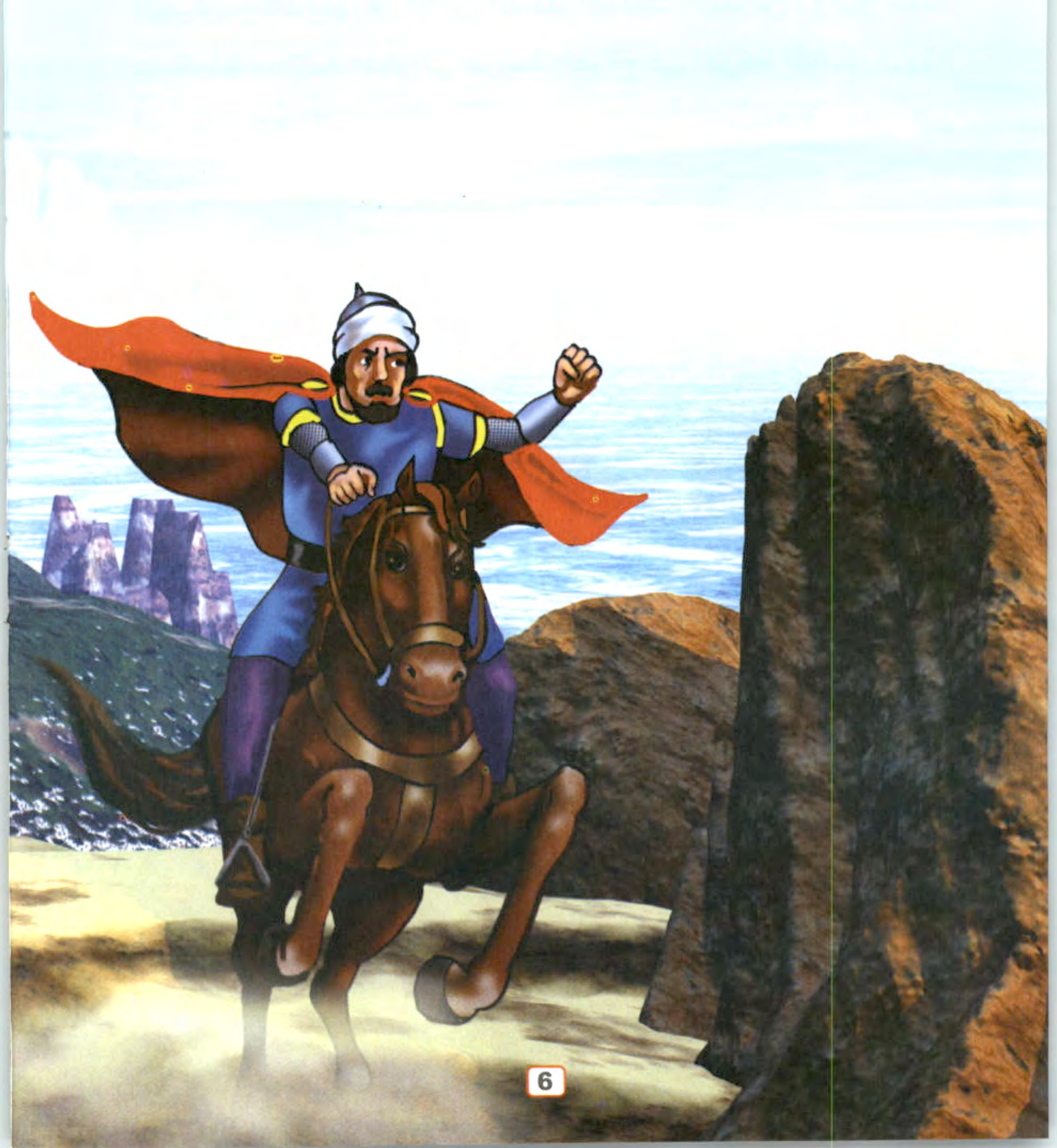
ثُمَّ انْتَقَلَ إلَى خدْمَة الْملك الصَّالح "نَجْم الدِّين أَيُّوب" سُلْطَانِ مصْرَ، الَّذى أَعْتَقَهُ وَجَعَلَهُ منْ جُمْلَة مَمَاليكه، ثُمَّ وَلاَّهُ رئَاسَةَ إحْدَى فرَق حَرَسه الْخَاصِّ، وَرَقَّاهُ قَائدًا لفرْقَة الْمَماليك لما رَأى منْ شَجَاعَته وَفُرُوسيَّته وإقْدَامه وَشَخْصيَّته الْقَويَّة.



بَرَزَ بيبَرْسُ بشَكْلٍ كَبير عنْدَمَا قَادَ جَيْشَ الْمَماليك فى مَعْرَكَة الْمَنْصُورَة ضدَّ الصَّليبيِّينَ فى رَمَضَانَ منْ عَام ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م، فَقَدْ شَنَّ الفرنْجَةُ الصَّليبيُّونَ هُجُومًا مُبَاغتًا عَلَى الْجَيْش الْمصْرىِّ ممَّا تَسَبَّبَ بمَقْتَل قَائد الْجَيْش الْمصْرىِّ "فَخْر الدِّين بْن الشَّيْخ"، فَارْتَبَكَ الْجَيْشُ، وَكَاد يَنْهَزمُ، إلَّا أنَّ الْقَائدَ الْجَديدَ "بيبَرْسَ" وَضَعَ خُطَّةً عَسْكَريَّةً مُحْكَمَةً أدَّتْ إلَى هَزيمَة الْفرنْج فى مَعْرَكَة الْمَنْصُورَة، وَتَمَّ أَسْرُ قَائدهمُ الْمَلك الْفَرَنْسىِّ "لويس التَّاسع" وَحَبْسه فى دَار "ابْن لُقْمَانَ".



وَفى أَثْنَاء مَعْرَكَة الْمَنْصُورَة مَاتَ السُّلْطَانُ الصَّالحُ أَيُّوبُ، وَاسْتَدْعَتْ زَوْجَتُهُ "شَجَرُ الدُّرّ" ابْنَهُ "تُورَانْ شَاهْ" منَ الشَّام ليَكُونَ السُّلْطَان بَدَلًا منْ أَبيه، إلَّا أَنَّهُ تَسَبَّبَ فى كَثير منَ الْمُضَايقَات لمَنْ حَوْلَهُ، فَتَمَّ قَتْلُهُ، وَأَصْبَحَتْ "شَجَرُ الدُّرّ" حَاكمَةَ مصْرَ.



وَتَزَوَّجَتْ مِنَ السُّلْطَانِ "عِزِّ الدِّينِ أَيْبَكَ" الَّذى قَرَّرَ التَّخَلُّصَ مِنَ الْأَمِيرِ "أَقْطَاىْ" وَمَمَاليكه - وَمِنْ بَيْنِهِمْ بِيبَرْسُ - وَتَمَّ ذَلك بِمُسَاعَدَةِ الأَمِيرِ "قُطُزَ"، وَبَعْدَ مَقْتَلِ "أَقْطَاىْ" هَرَبَ "بِيبَرْسُ" وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمَمَاليك إِلَى الشَّامِ.



وَقُتلَ السُّلْطَانُ "عزُّ الدِّين أَيْبَكُ" عَلَى يَد "شَجَر الدُّرِّ" الَّتى قُتلَتْ هىَ أَيْضًا عَلَى يَد الزَّوْجَة الأُولَى للسُّلْطَان "أَيْبَكَ"، وَأَصْبَحَ "قُطُزُ" الْحَاكمَ الْفعْلىَّ لمصْرَ، وَجَاءَهُ رُسُلُ التَّتَار وَقَائدهمْ "هُولاَكُو" لتَسْتَسْلمَ مصْرُ، وَالْمصْريُّونَ، فَقَتَلَ قُطُزُ رُسُلَ هُولاَكُو، وَأَعْلَنَ الْحَرْبَ عَلَى التَّتَار.



فَأَرْسَلَ "بِيبَرْسُ" وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمَمَالِيكِ يَعْتَذِرُونَ للأَمير "قُطُز"، فَعَفَا عَنْهُمْ وَحَارَبَ بِيبَرْسُ بِجَانِبِ قُطُزَ وَانْتَصَرُوا عَلَى التَّتَارِ فِى مَعْرَكَةِ عَيْنِ جَالُوت، وَفِى طَرِيقِ عَوْدَةِ الْجَيْشِ الْمِصْرِىِّ مُنْتَصِرًا إِلَى مِصْرَ، قَتَلَ "بِيبَرْسُ" السُّلْطَانَ "قُطُزَ" خَوْفًا مِن انْتِقَامِه مِنْهُمْ.

اتَّفَقَ أُمَرَاءُ الْمَمَالِيكِ عَلَى مُبَايَعَةِ "بِيبَرْسَ" قَائِدًا لَهُمْ، وَلَقَّبُوهُ بِـ "الْمَلِكِ الظَّاهِرِ" وَأَجْلَسُوهُ عَلَى كُرْسِىِّ الْمُلْكِ.



اسْتَطَاعَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بِيبَرْسُ بِحَمْلَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ الْقَضَاءَ عَلَى ثَوْرَةِ الْأَمِيرِ "عَلَمِ الدِّينِ سَنْجَرَ" أَمِيرِ حَلَبَ وَالَّذِى نَادَى بِنَفْسِهِ سُلْطَانًا عَلَى دِمَشْقَ، وَتَمَّتْ إِعَادَةُ دِمَشْقَ تَابِعَةً إِلَى مِصْرَ.

كَمَا اسْتَطَاعَ الْقَضَاءَ عَلَى ثَوْرَةِ "الْكُورَانِىِّ" دَاخِلَ مِصْرَ، وَهُوَ فَارِسِىُّ الْأَصْلِ كَانَ يَهْدُفُ إِلَى قَلْبِ نِظَامِ الْحُكْمِ، كَمَا اسْتَطَاعَ "بِيبَرْسُ" إِحْيَاءَ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ بِالْقَاهِرَةِ، اسْتَقْدَمَ السُّلْطَانَ "أَبَا الْعَبَّاسِ" وَلُقِّبَ بِالْخَلِيفَةِ "الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ"، وَالَّذِى قُتِلَ فِيمَا بَعْدُ وَهُوَ يُحَاوِلُ بِجَيْشِهِ التَّغَلُّبَ عَلَى جَيْشِ الْمَغُولِ.

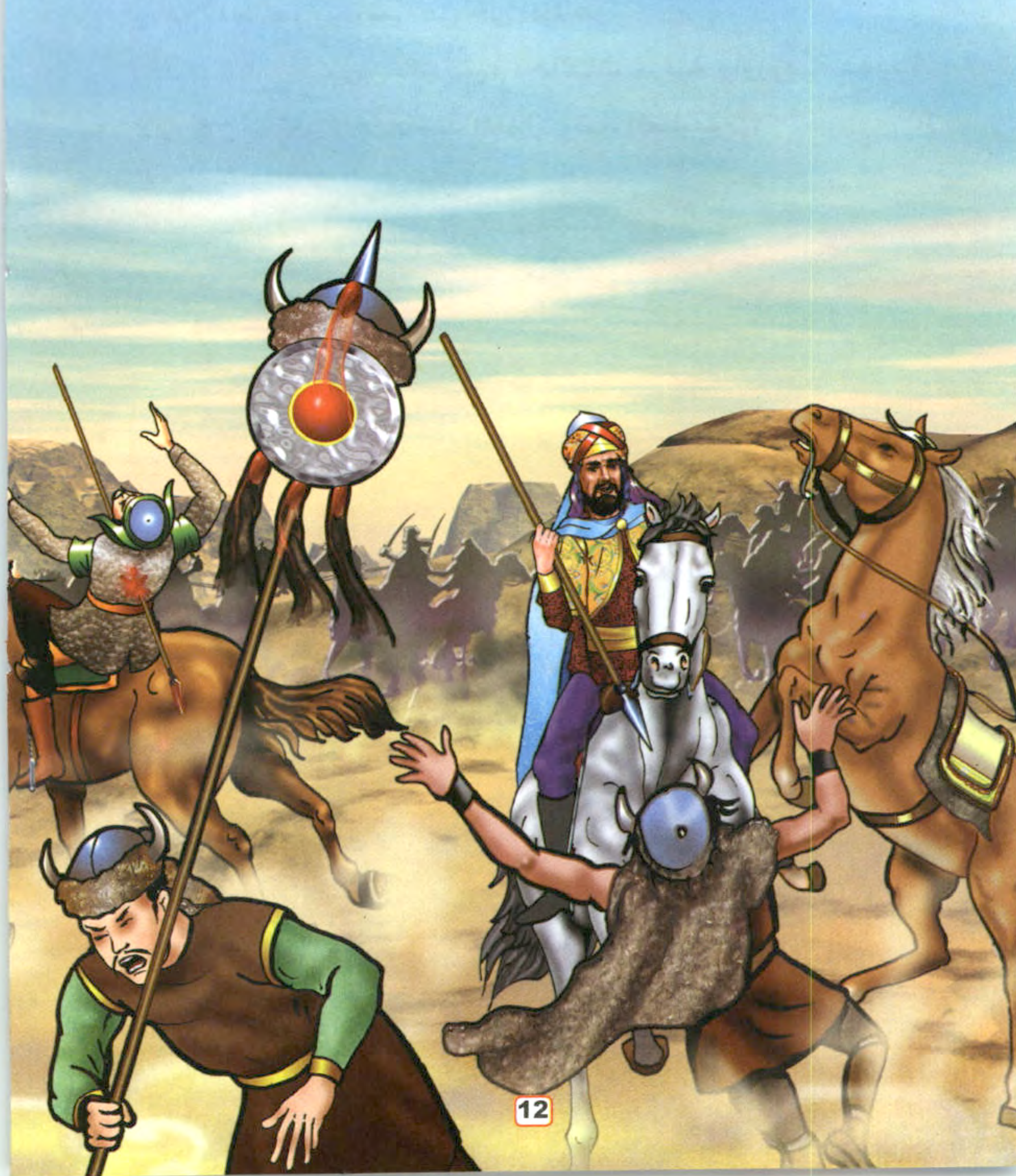


وَشَهِدَ عَصْرُ "بِيبَرْسَ" نَهْضَةً مِعْمَارِيَّةً وَتَعْلِيمِيَّةً كَبِيرَةً، وَذَلِكَ بِإِنْشَاءِ الْمَدَارِسِ بِمِصْرَ وَدِمَشْقَ وَاهْتَمَّ بِتَجْدِيدِ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ، وَأَنْشَأَ عَامَ ٦٦٥ هـ، ١٢٦٨ م جَامِعًا عُرِفَ بِاسْمِهِ إِلَى الْيَوْمِ فِى الْقَاهِرَةِ وَهُوَ جَامِعُ "الظَّاهِرِ بِيبَرْسَ" فِى حَىِّ الظَّاهِرِ.

وَقَدِ اسْتَطَاعَ "بِيبَرْسُ" أَنْ يُقِيمَ تَحَالُفَاتٍ عَرَبِيَّةً وَأُورُوبِّيَّةً عَدِيدَةً، لِأَنَّهُ كَانَ يَسْتَعِدُّ لِلْجِهَادِ ضِدَّ الْمُغُولِ، وَضِدَّ الصَّلِيبِيِّينَ.



أَمَّا الْمَغُولُ فَقَدْ كُسِرَتْ شَوْكَتُهُمْ، ممَّا دَعَا "أَبْغَا" ابْنَ هُولاكُو إلَى طَلَبِ الصُّلحِ، وَلَكِنَّ بيبَرْس رَفَضَ، وَحَارَبَهُمْ فِى منْطَقَةِ "السَّاجُورِ"، وَمنْطَقَةِ "عَيْنِ تَابِ"، وَدَمَّرَهُمْ، أَمَّا فِى مَوْقِعَةِ "أبلستين" عَامَ ٦٧٥هـ.



فَقَدْ أَلْحَقَ بالْمَغُول هَزِيمَةً سَاحِقَةً هُمْ وَحُلَفَائِهِمْ مِنَ السَّلاجِقَة وَأَمَّا الصَّلِيبِيُّونَ، فَقَدْ قَرَّرَ "بِيبَرْسُ" فَتْحَ "عَكَّا" لأَهَمِّيَّتِهَا الإِسْتِرَاتِيجِيَّة الْكَبِيرَةِ فِى مَسَارِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّة مُنْذُ أَنْ بَدَأَتْ.



وَاتَّبَعَ "بيبَرْسُ" الْحِيلَةَ وَالدَّهَاءَ فى دُخُول "عَكَّا". وَذَلِكَ لعدَّة أَسْبَاب منْهَا: أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ تَطُولَ الْحَرْبُ، وَثَانِيًا لأَنَّ فَتْحَ "عَكَا" يَرْفَعُ الرُّوحَ الْمَعْنَوِيَّةَ لجُنُوده، وَيَبُثُّ الذُّعْرَ فى الْمُعَسْكَر الصَّلِيبِىِّ، وَأَيْضًا فى الْمُعَسْكَرِ الْمَغُولِىِّ. وَاعْتَمَدَتْ هَذه الْحِيلَةُ عَلَى خدَاع حُرَّاس مَدِينَة "عَكَّا" وَذَلِكَ بِأَن ارْتَدَى الْجُنُودُ الْمُهَاجِمُونَ مَلَابِسَ تَبْدُو لِهَؤُلَاءِ الْحُرَّاسِ أَنَّهُمْ جُنْدٌ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ.



وَمَا أَن اقْتَرَبَ جُنُودُ "بِيبَرْسَ" مِنْ أَسْوَارِ "عَكَّا" حَتَّى بَدَأُوا بِهُجُومٍ انْدِفَاعِيٍّ كَبِيرٍ، وَاسْتُخْدِمَ الْمَنْجَنِيقُ بِكَثْرَةٍ لإِشَاعَةِ جَوٍّ مِنَ الْخَوْفِ وَالذُّعْرِ فِى قُلُوبِ الصَّلِيبِيِّينَ دَاخِلَ "عَكَّا". وَتَمَّ فَتْحُ أَبْوَابِ الْقَلْعَةِ الْحَصِينَةِ، وَأَبْلَى جُنُودُ "بِيبَرْسَ" بَلاءً حَسَنًا، وَاسْتَطَاعُوا أَنْ يَقْتُلُوا الْكَثِيرَ مِنْ جُنُودِ وَفُرْسَانِ الْحِصْنِ، وَأَسْرَعَ الْكَثِيرُ مِنْ أُمَرَاءِ الصَّلِيبِيِّينَ إِلَى "بِيبَرْسَ" يَطْلُبُونَ الصُّلْحَ، فَوَافَقَ عَلَى الصُّلْحِ مَعَ بَعْضِ الإِمَارَاتِ، وَرَفَضَهُ مَعَ بَعْضِ الإِمَارَاتِ الأُخْرَى، وَعَادَ "بِيبَرْسُ" إِلَى مِصْرَ مُحَقِّقًا انْتِصَارَاتٍ كَبِيرَةً عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ.



وَأَقَامَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ "بيبَرْسُ" عَلاقَاتٍ مَعَ كُلٍّ منْ بِلَاد النُّوبَة، وَالحجَاز، وَتُونُس، وَغَيْرِهَا منَ الْبِلَاد وَاهْتَمَّ "بيبَرْسُ" بِالْعُلوم وَالدِّين لإيمانه بأَهَمِّيَّة الاعْتمَاد عَلَى الْعِلْم باعْتبَاره السَّبيلَ الْوَحيدَ للرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّم، كَمَا اهْتَمَّ بالزِّرَاعَة، وَأَيْضًا بالصِّنَاعَة مثْل صِنَاعَة : السِّلَاح، وَالزُّجَاج، وَالْخَزَف، وَالنَّسيج وكَذَلكَ اهْتَمَّ بالْمَرْأَة، وَأَمَرَ الْحُكَّامَ بالاهْتمَام بزَوْجَاتهِمْ، فَانْتَقَلَ هَذَا الاهْتِمَامُ إلَى الشَّعْب، كَمَا اهْتَمَّ بالْبَريد وخَاصَّةً الْبَريدَ الْجَوِّيَّ عَنْ طَريق الْحَمَام الزَّاجل.

وَتُوُفِّيَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ "بيبَرْسُ" وَهُوَ فى دمَشْقَ يَوْمَ الْخَميس ٢٧ منْ مُحَرَّم منْ عَام ٦٧٦ هـ الْمُوَافق، مَايُو عَامَ ١٢٧٧م وَدُفنَ فى الْمَكْتَبَة الظَّاهريَّة فى دمَشْقَ بَعْدَ حُكْم دَامَ ١٧ سنَة، وَقَدْ بَلَغَ منَ الْعُمْر ٥٤ سَنَةً، وَتَوَلَّى الْحُكْمَ منْ بَعْده أَكْبَرُ أَبْنَائه "نَاصرُ الدِّين"، إلَّا أنَّ أَوْلَادَ "بيبَرْسَ" لَمْ يَدُمْ لَهُمُ الْحُكْمُ طَويلًا.

